قراءة

عبد الله الحسيني

تأخذُ رواية الكاتب الكويتي جانب هؤلاء الذين يعيشون ظروفاً صنعها شرطٌ قاس، هو عدم الاعتراف بهم؛ فمكان ولادتهم لا يعطيهم حقّ الانتماء إليه، ومَن يُنجب منهم يعرف أنّه يُحضر أبناءه إلى مكان ينبذهم

عبد الله الحسيني في «باقي الوشم»

ما الذي يجعلني أنتظر الربيع؟

سومر شحادة

كلُّ ما يحدث في رواية الكاتب الكويتي عبد الله الحسيني (2000)، «باقي الوشم»، التي حازت مؤخّراً «جائزة غسّان كنفاني للرواية العربية» في دورتها الثالثة، يحدث في انتظار حدثٍ لا يتمّ. وقد استطاعت الرواية الصادرة عن «منشورات تكوين» عام 2022 أن تترك قارئها مشدوداً إلى حدث لن يأتي، منتظراً أمراً يعرف أنّه لن يحدث، وهو مجيء الربيع. بدا مجيء الربيع مقترناً بتحقّق الموت، لأنّ الموت وحده يترصّد مَن تقضّ الرواية حكايتهم. إنّهم أناسٌ مرميون إلى أقصى الهامش، لا تذكرهم حكومتهم، ولا يَعتدّ بهم بلدهم؛ كويتيون لا يحملون الجنسية الكويتية. الرواية عن «البدون».

عدا أنّ الرواية تأخذ جانب هؤلاء الذين يعيشون ظروفاً صنعها شرطٌ قاس، وهو عدم الاعتراف بهم، فمكان ولادتهم لا يعطيهم الحقّ بالانتماء إليه، ومَن يُنجب منهم يعرف أنّه يُحضر أبناءه إلى مكان ينبذهم، وتشريعاته تجعل حياتهم شاقّة في المدارس، والجامعات، والوظائف، والطبابة، وحتّى عند استخراج شهادة الوفاة. تعرض الرواية حكاية هؤلاء بصورة بدا أنّ الحكاية تتكسّر أكثر مما تنبني، لأنّ فيها ألماً واستحالة، ولأنّها تبدأ من ذروة الانتظار، وتتكشّف مصائر الشخصيات مع عبث الانتظار، وتنتهي بانتهائه. ويستنتج القارئ قبل النهاية أنّ الانتظار لن يفضي إلى شيء، وأنّه محضُ انتظار يجعل من كلّ يوم يمضي على الشخصيات اقتراباً من أجلٍ، وموعداً مع أجل - مهما فعلوا - لن يؤثّروا عليه. الرواية عن أناس لا يملكون من أمرهم شيئاً. يعيشون في بيوت ليست لهم، ينجبون أبناء، لكن سرعان ما يقضّ عيشهم ندمٌ أنّهم أنجبوا، واعتقدوا بإمكانية تغيير أحوالهم. إذاً، الرواية بمجملها تنزع عن مجموعة من البشر فاعليّتهم وتُظهرهم أشخاصاً منزوعي الغد. الربيع الذي تنتظره الجدّة طوال سبعين عاماً، نعرف أنّه مرتبطٌ بذكرى عزيزة عليها، هي ذكرى الوشوم التي رسمتها على جسدها سيّدةٌ غجرية كانت تجيء إليهم في الربيع. وقد تبعتها في المرّة الأخيرة كي ترسم لها زهرة النوير، وغامرت بالخروج عن إرادة والدتها، وكسرت خوفها بلحاق الواشمة الغجرية، واجتياز المسافات بمفردها. نعرف أيضاً أنّ قطيعاً كانت الجدّة ترعاه، مات من البرد، وقلّة الموارد؛ فيما كانت تنتظر قدوم الربيع. حدثان ارتبط بهما الربيع، أحدهما ذكرى حضوره، والآخر ذكرى انتظاره. لكنّ الرواية غنيّة بالأحداث التي تجري مع عائلة تعيش ببطاقات مؤقّتة، ويعزّ على القارئ أن يدعوها عائلة كويتية، فهُم لا يملكون جوازات، ولا يحملون جنسية. وكلّ الأحداث التي تجري مع تلك العائلة بأجيالها الثلاثة، لا تعدو كونها أحداثاً تحمل فلسفة انتظار المسرحي الأيرلندي صموئيل بيكيت (1906 - 1989)، لولا أنّ الحسيني أغلق ذلك الانتظار البارع، بحدث الموت.

تموت الجدّة في الصفحات الأخيرة. مع ذلك، يشعر القارئ أنّ عقداً انفرط. ومع انفراط العقد أُعيد ترتيب حكاية العائلة؛ إذ تعود غرفة الصفيح التي بناها الأب، كي يُحضّر لزواج ابنه، وقد قرّرت الجدّة أن تسكن فيها لتراقب النجوم، وتقرأ اقتراب الربيع؛ تعود إلى الابن وعروسه. وكان عرسهما أحد الإشارات التي تُظهر عار التمييز؛ إذ عندما غفلوا عن مراقبة الجدّة؛ وضعت أغنية خاصّة بالبدون، وأخذت ترقص... ما أقلقَ العائلة التي أتاحت لها وظيفة الأب العسكرية أن يسكنوا بيتاً، سيخرجون منه ما إن يتقاعد، وأتاح لهم إخفاء أصولهم بادّعاء الانتماء إلى إحدى القبائل، إلى جانب أنّهم مشمولون بإحصاء عام 1965، أن تكون لهم حظوة الحصول على جنسية وجواز سفر في يوم ما. مع ذلك، فالأغنية تُشعرهم بالتهديد، وبأنّهم قد يخسرون ما يتمتّعون به. ولو أنّه بالقليل من التدقيق، فإنّ الأمر الوحيد الذي يحوزونه هو الانتظار.

يكاد يكون الأمر الوحيد الذي يفعله الراوي في هذه الحكاية مراقبة تلك الشخصية الاستثنائية المؤثّرة التي صنعها الحسيني، وهي الجدّة حمضة السحاب، الجدّة التي أكل البرد عظمها في قيظ الكويت. بلا شك، القارئ يستسلم لقوانين الرواية - إن كانت رواية متقنة مثل «باقي الوشم»، وهكذا، نستسلم لشعور الجدّة بالبرد الدائم، وشعورها هذا يقابل شعوز إحدى بناتها التي استطاعت أن تصل إلى كندا، وأن تنجب أطفالاً هناك، كنديّين، واستطاعت بناء تواصُل مع العائلة عبر كاميرا اللاب توب، وقد أشهرت جوازها الكندي أمام الكاميرا، فهي لم تكن كويتية يوماً. ربّما يكون برد الجدّة، هو برد ابنتها التي دُفنت في الثلوج. تفسيرٌ يمكن أن يُضاف إلى ما يقترحه النصّ لبرد الجدّة. في الأحوال جميعها، ما جمع هؤلاء ليس بيت الصفيح، أو المساحة الضيّقة التي منعتهم من إقامة عزاء للجدّة في بيتهم، وإنّما ما جمعهم؛ الانشغال المؤلم بتفسير العلاقة مع المكان، وما صنع شخصياتهم ليست بيوتهم، كما يذهب الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار (1884 - 1962)، إلى تفسير العلاقة بين البيت وساكنه، إنّما ما صنع شخصياتهم هو تهديد ألّا يكون لديهم بيت.

> ما صنع شخصيات الرواية هو تهديد ألّا يكون لها بيت

الأب مهزوم، يرفض استخدام زوجته مانع الحمل، والابن مهزومٌ، تدسّ والدته لزوجته حبوب منع الحمل. وهم أشخاص تقضّ عيشهم أسئلة مضنية؛ هل نقبض رواتبنا في الغد؟ هل نستطيع التسجيل في المدرسة أو الجامعة في العام القادم؟ وهل لدينا خياراتٌ أصلاً... فالاختيار لم يكن من شأنهم. «باقي الوشم»، وهي ثاني رواية للحسيني بعد «لو تغمض عينيك» (2017)، نصٌّ موجع، قادته موهبة مؤكّدة جمعت سعة المخيّلة وبساطة التعبير ومباشرته. وقبل ذلك، أمانته، وقراءته للواقع من غير تحامُل، حتّى الاعتراضات التي كانت تحدث؛ يمثّلها الابن الذي ترزّق، وشهدنا عرسه. ونعرف أنّه لم يكمل دراسته، وقرّر أن يعمل بائعاً بسيطاً، واستمرّ يُغرّد على «تويتر» غاضباً وسط خوف العائلة عليه. إلّا أنّ رفضه تطوير حياته، واعتكافه، ليسا إلا ترجمةً للرفض الذي يقترحه النصّ، وكأنّما «باقي الوشم»، التي أضافت إلى الأدب العربي شخصيةً تنتظر الربيع، ليست إلّا اعتكافاً أليماً عن تغيير لا يأتي.

(روائي من سورية)

معرض

سيتا مانوكيان ماء عند حدود اللون والضوء

أن تتأمّل الكون عبر «قطرات الندى»

سيتا مانوكيان إلى جانب إحدى لوحاتها في المعرض

في معرضها المُقام حالياً في «غاليري مرفا»، تستلهم التشكيلية اللبنانية الأرمنية قطرة الندى كمفهوم صوفي تنظر من خلاله إلى الوجود والكون

بيروت ـ العربي الجديد

عشرون عاماً من التشكيل تتكثّف في قطرة أو «قطرات الندى»، وفقاً للاسم الذي اختارته التشكيلية اللبنانية الأرمنية سيتا مانوكيان (1945) لمعرضها الذي يتواصل في «غاليري مرفا» ببيروت، حتى السابع من أيلول/ سبتمبر المُقبل، ويضمّ لوحات اشتغلت عليها خلال العقدين الأخيرين.

تُؤطّر الخلفية الصوفية اللوحات بقوّة. فمن جهة لدينا التجربة البوذية التي تُحرّك رؤى الراهبة والفنّانة في عوالم لا محدودة، ومن أخرى يبرز عنوان المعرض المُشتقّ من عبارة تُنسب إلى جلال الدين الرومي: «أنت لست قطرة في محيط، بل مُحيط في قطرة» وهكذا تتوالى القطرات لا بما هي مياهٌ فحسب، بل سيولة بأبعاد مختلفة، وتتعدّد حتى تكاد توحي بأنّ الجمادات والحيوات التي تصوّرها اللوحة تُشتقّ من تلك القطرات، وهذا ما نلاحظه من التداخل بين الدوائر اللونية الكبيرة التي تُصوّرها الأعمال. الأحمر هو اللون الذي تَنشدُّ إليه «قطرات الندى». ليس ثمّة من صفاء أو وضوح يُضاهيه، والأمر لا يحتاج طول تمعُّن ليُحيل إلى الدم، لكنّه يحتفظ برقّته اللونية من دون أن يُفصح عن تأويلات قاسية، إذ، وعلى العكس تماماً، تحتفظ اللوحة بمقدار من التعبير الإنساني المرسوم بدقّة، فالأشكال والهيئات التي تبدو عفوية في بداية الأمر، نكتشف أنّها نتاج عملية تأمّل عميقة. وعلى مقربة من الماء تنعقد في إحدى اللوحات كفّان، ثم تنبسطان في أُخرى مجاورة لها، من دون أن يحتوي العمل على أيّ إشارة إلى الماء. فالإيحاء هنا متروكٌ للمُخيّلة وحدها كي «تكتشف» الماء لا أن تُعاينه في حضوره المرئي. إنها عملية ابتكار، وطرفاها اللون والضوء

> دوائر ونقاط تبدو عفوية لكنّها تكشف عن عملية تأمّل عميقة

معاً. مع ذلك، يبقى التأمّل سيّد الموقف حيث تنساب الخطوط عبر ضربات الفرشاة الهادئة التي ترسم الطريق من الوردة إلى قطعة الخبز، أو حتى البيض الأبيض الذي يعيدنا إلى هندسة القطرة وانسيابية الدائرة.

وأمام لوحة كهذه، نستعيد المقولة النقدية حول «تراسُل الحواس»، والتي استلهمتها تيّارات فنّية حداثية عديدة من التراث الصوفي، حيث يُترك الأمر لعملية التذوّق والحدس العميق، وبهذا لا نعود إلى اللوحة إلّا بوصفها «عالماً أكبر»، وفقاً للتعبير الشهير لجلال الدين الرومي.

في «قطرات الندى» تختلط لوحات سيتا مانوكيان، من حيث الإطار والمضمون، عن اشتغالاتها إبّان الحرب الأهلية اللبنانية (1975 - 1990)، والتي لم تشهد الفنّانة نهايتها، إذ سافرت إلى لوس أنجليس قبل ذلك التاريخ بخمس سنوات. هناك بدأت مرحلة جديدة على المستوى الفنّي مُنطلقها الولايات المتّحدة الأميركية، وتجاوزت ما كان سائداً في بيروت بفعل الحرب والصراعات السياسية والأيديولوجية حينها، وراحت تُجرّب رؤى مختلفة، قبل أن تعود أخيراً إلى المدينة التي انطلقت منها، بعد عقود قدّمت خلالها العديد من المعارض والمشاركات الدولية، كما ساهمت في إعداد مؤلّفات حول الفنّ التشكيلي وكذلك الأفلام التسجيلية.

مسرح

غويرنيكا غزّة خمس حكايات خرجت من رحم الإبادة

استعادة لوحة بيكاسو على خشبة فلسطينية

في حديثه لـ«العربي الجديد» عن العرض الادائي الذي اخرجه، ويقدّمه «مسرح عشتار» في رام الله، يقول إميل سابا «لا نصّ ولا لوحة ولا عمل ادائيّاً يُمكنه التعبير عن الإبادة»

رام الله ـ بديعة زيدان

تحت عنوان «غويرنيكا غزّة»، قدّم «مسرح عشتار» في مقرّه بمدينة رام الله، مساء السبت الماضي، عرضاً أدائياً من توقيع المُخرج إميل سابا، عن نصّ مأخوذ من مسرحية «غويرنيكا» للكاتب الإسباني فرناندو أرابال (1931)، أعاد كتابته بالإنكليزية وعدّل عليه الفلسطيني إسماعيل الخالدي والأميركية نعومي والاس، وترجمته إليس يوسف.

ويتناول «غويرنيكا غزّة»، الذي يُعرض أيضاً في 18 و21 و25 من الشهر الجاري، حرب الإبادة الصهيونية في غزّة، من خلال حكاية خمس شخصيات يؤدّيها الفنّانون: تامر طافش، وديفيد طنّوس، وباشا أصبح، وفادي مراد، ونورسان قواسمة.

اعتمد العرض (75 دقيقة)، الذي حمل عنواناً فرعياً «رؤى من مركز الأرض»، على حكايات إنسانية عدّة، مازجاً بين الفنون الأدائية وتقنيات الفيديو والفنون البصرية، في استعادة لما تُمثّله لوحة «غويرنيكا» للتشكيلي الإسباني بابلو بيكاسو الذي أجاب حين سأله ضابط نازيّ عن لوحته الشهيرة، التي يخلّد فيها ذكرى ضحايا المدينة الإسبانية التي تحمل اللوحة اسمها، وتم تدميرها من قبل سلاح الجوّ الألماني في عام 1937، بأن «مَن فعل هذا؟»، فأجابه: «أنت فعلتها»، وهو لسان حال كلّ الفلسطينيّين أمام العُدوان الإبادي الإسرائيلي.

يتتبّع «غويرنيكا غزّة» مصائر خمس شخصيات خرجت من جحيم الإبادة في غزّة: راكبة الأمواج، الشهيدة التي يستذكرها والدها على الدوام، ومُربّي النحل، وصاحب الإبرة الذي يخيط جروح الحيوانات، وشقيقة المقاوم، في توليفة بعيدة عن الطرح المباشر قدّمها فنّانون جلّهم أصحاب تجارب أولى على الخشبة.

ومنذ المشهد الافتتاحي تتدلّى الشاشات الطولية، لتُشكّل تكوينياً، أساساً بصرياً طوال العرض، بل خشبة من نوع مُغاير للشخصيات، بالإضافة إلى المؤثّرات الصوتية والفيديوهات المُرافقة، التي أضافت جماليّات فنّية، على عمل يتّسم بالمأساوية، لكنّه نجح، من خلال طابعه المُتداعي، في إبراز معاني الفُقدان، والأمل، والصمود، فضلاً عن تصويره فظاعات العُدوان والطريقة التي جُرّد فيها الشعب الفلسطيني من إنسانيّته مع تصريحات مُجرم الحرب الإسرائيلي، يوآف غالانت، الذي وصف الفلسطينيّين، لمرّتين، بأنّهم «حيوانات بشرية».

وفي حديث لـ«العربي الجديد»، أشار مُخرج العمل إميل سابا، إلى أنّه، ومع توالي أشهر حرب الإبادة على قطاع غزّة، تولّد شعور لديه، ولدى فريق العمل، أنه لا بُدّ من تقديم شيء يعكس ما في دواخلهم إزاء ما لا يُمكن التعبير عنه فنّياً أو كتابيّاً، من فظائع تتواصل، ومنها مجزرة المواصي في خانيونس، التي وقعت في الثالث عشر من تموز/يوليو الجاري، وتزامنت مع يوم العرض الأول، فجاء العمل ردّ فعل فنّياً يُشبه ما حدث مع بيكاسو حين شاهد صُوَراً للمدينة الإسبانية في الجريدة، فكانت لوحته الشهيرة «غويرنيكا»، مؤكّداً أنّ لا نصّ ولا لوحة ولا عمل أدائياً يُمكنه التعبير عمّا حدث ويحدث في غزّة منذ أكثر من تسعة أشهر. وأضاف سابا: «خرج كلّ من والاس والخالدي بنصّ جديد حول ما يحدث في غزّة اليوم، مُستوحىً من «غويرنيكا» بيكاسو، من حيث التقطيع إلى أجزاء تعكس حالة أجساد الغزّيّين التي مزّقها العدوان إلى أشلاء، وبالاستناد على نصّ «غويرنيكا» لـ فرناندو أرابال، كما أنّ التدريب استغرق شهرين ونصف الشهر، وتم تغيير النص أكثر من مرّة، تبعاً للتطوّرات على الأرض».

> ثلاثة عشر عرضاً من ستّة عشر بلداً عربياً وأجنبياً

ولفت المخرج الفلسطيني إلى أنّه فضّل العمل مع شباب موهوب بعيد نسبيّاً عن خشبة المسرح، باعتبار أن عمل «غويرنيكا غزّة» ليس مسرحاً تقليدياً، بل هو تركيب فنّي، لذا تعاون مع متخصصة فنّ الفيديو (فيديو ارت) الفنّانة ياسمين العمري، ومصمّم الصوت الفنّان معتصم صيام، وهو ما ينطبق على أعضاء طاقم العمل، وممثّليه. وختم سابا حديثه لـ«العربي الجديد» بالإشارة إلى رغبة فريق «مسرح عشتار» في تناول فظاعات العُدوان ونقلها إلى العالم من خلال تقديم العرض المُقرّر في دول عدّة سواء بالإنكليزية أو بالدارجة الفلسطينية، وعدم أخذ مسافة بعد الحدث للكتابة عنه، أو تجسيد شيء منه.

عن مسرحية «غويرنيكا» للكاتب الإسباني فرناندو ارابال (العربي الجديد)

إطلالة

تفصيلٌ ثانوي

عاطف الشاعر

أقرأُ بين الفينة والأُخرى عن نداء من الكتّاب الفلسطينيّين وغيرهم لتدوين وتوثيق ما يحدث في غزّة أدبياً، أي من خلال كتابة روايات وقصائد وغيرها، وهذه النداءات صادقةٌ في نيّتها في التفاعُل مع أحداث تجعل الولدان شيباً، حسب التعبير القرآني.

ربّما يستطيع الشعر التعبير عن الأحداث والتفاعُل معها، لكنّ الرواية تختلف، حيث البنية والنفَس السردي الطويل عن الشخوص وعلاقاتهم يحتاجان رؤية تتجاوز الحدث زمنياً. ما أمكن، لتتّضح الرؤية، وإن كان ثمّة روايات خرجت من رحم الثورة السورية والمأساة العراقية وغيرهما وأحسنت التفاعُل مع أحداث جسيمة مستمرّة.

ومع هذا، لا أعرف إن كان بمقدور الرواية خصوصاً أن تُجاري أحداثاً وقصص عذابات وأهوال بشرية فلسطينية من نوع قيامي لا تنتهي في غزّة. ربّما قليلةٌ هي الروايات التي تَكتب الحدثَ الجلل بينَما هو واقع. أغلب الروايات التي تتناول أحداثاً جسيمة تأتي غالباً بعد الحدث، وإن استمرّت آثاره، فمِن «الحرب والسلام» لتولستوي وتناوله غزو نابليون لروسيا، إلى روايات غسّان كنفاني، التي يقع غالبها بعد الحدث التي تتناوله.

وهنا تخطر في بالي رواية عدنية شبلي «تفصيل ثانوي»، وهي رواية تأتي بعد عقود طويلة من الحدث الرئيسي فيها، والذي تُبنى حوله، لتُرينا بشاعة الصهيونية، بينما نرى ذروة قذارتها ووحشيتها في غزّة وعموم فلسطين. وربّما هذا ما سيحدث مع غزّة، مع أنّني أتفهّم محاولة الكُتّاب الغوص والعيش في أتون المأساة من خلال روايات تجعلهم يعيشون الحدث، لأنّ الصمت ورؤية الأخبار من دون القدرة على تغيير أيّ شيء يؤلمان النفس ويجرحان الهوية. أذكُر رواية شبلي مثالاً على رؤية الصهيونية بوصفها مشروع بشاعة من أوّله إلى آخره، وهذه هي رحلة الرواية.

بهدوء وحكمة وكثير من الصبر والشغف، تقودنا الكاتبة إلى لبّ الحدث الذي يعشّش في ركن من أركان الرواية، عابرةً صحراء النقب، حيث يغتصب ضابط إسرائيلي فتاة فلسطينية على وقع نباح كلاب في الخارج. يترقّبها الضابط ويفعل أفعاله مع الفلسطينيّين إلى أن ينفرد بالفتاة في غرفة صغيرة، ويفرض عليها ما يفرض ليفعل فعلته، ثمّ يقتلها ويُلقي بها في غياهب الصحراء. هذا الحدث الذي وقع عام 1949 يتكرّر صداه بأشكال مختلفة في غزّة الآن، وكذلك كثيرٌ من الأحداث المؤلمة في رحلة العذاب الفلسطيني.

الحادثة مزلزلةٌ بما يكفي، وما تقوم به هو تتبُّع خيوطها بالبحث عن الأرشيفات الإسرائيلية التي من المفترض أن تحوي تفاصيلها. تستخدم الراويةُ الحيل والألاعيب كي تصل إلى الأرشيف الإسرائيلي المتعلّق بالحادثة وتبحث أكثر عنها، فتلجأ إلى هوية زميلتها التي تحمل مزايا إسرائيلية تجعلها تتنقّل عبر الحواجز من مدينة رام الله التي تسكنها إلى الداخل الإسرائيلي الملغَم بالشبهات والعقبات.

أن تمرّ بالسيارة من فلسطين إلى ما يُسمى «إسرائيل» يعني أن تعبر حواجز وعقبات كبيرة، والمقصود هنا العبور على محطّات كثيرة من الألم الفلسطيني، على طريقة قرى مهجورة وبيوت مسلوبة، ولكن بطريقة تعيش فيها الراوية وشخصيات الرواية حياة بعيدة عن الصخب والدراما. إنّها حياة عادية في خضمّ تاريخ وأحداث غير عادية وغير طبيعية، تهزّ الروح إلى آخر طبقاتها. لكنّ الكاتبة تتجاوز الألم الآتي من أجل المعنى الأعمق والحياة الأكبر. هي الروح موجة لغة تبحث عن ذاتها في انكساراتها الكثيرة وفي انعدام الأفق. هنا كاتبة بارعة تُسخّر لغتها للحفر والمحاكاة، من خلال رموز وإيحاءات، مثل الكلب ونباحه المتكرّر في الصحراء، والشمس الذهبية، وألوان ملابس الجنود، وأعمدة المراقبة، والنباح المتكرّر الذي يدلّ على حدث جلل. الصحراء، لها كلامها وخفّتها وبطؤها، والجنود لهم صخبهم وطاقة الرعب في أفعالهم الرهيبة، والرصاصة التي يطلقونها على الراوية حين تجتاز بعض الحواجز في نهاية الرواية لها صوتها القاتل كنهاية مؤلمة لحلم الوصول، كأنّه يُمنع على أيّ فلسطيني أن يقترب من الحقيقة، حقيقة أنّ فلسطين كلّها تعيش حالة اغتصاب وقتل مُمنهجة منذ عام 1948.

(كاتب وأكاديمي فلسطيني مقيم في لندن)

فعاليات

تحتضن «مكتبة تكوين» في فرع الشويخ، بالكويت العاصمة، عند السابعة والنصف من مساء الثلاثاء المُقبل، محاضرة بعنوان **ما بعد المقاطعة** من تقديم الباحث **انس بورحمه**. تندرج المحاضرة ضمن سلسلة ندوات «سقط القناع عن القناع» التي تنظّمها المكتبة، بالتعاون مع «منصة الفنّ المعاصر» (CAP)، ورحملة مقاطعة إسرائيل».

يستضيف «مركز خليل السكاكيني الثقافي» برام الله، يومَي السبت والأحد المقبلين، ورشة كتابة نصوص حول ما يمرّ به الشعب الفلسطيني في غزّة ومجمل فلسطين، يقدّمها الكاتب الفلسطيني **جمال ظاهر** (الصورة). من إصدارات ظاهر في الرواية: **عند حضور المكان** (2000)، و**واضحى الليل اقصر** (2005)، و**الخليك بن جلجل** (2017).

عند الثامنة والنصف من مساء الأربعاء المُقبل، تنطلق عروض مسرحية **يا ولاد الأبالسة** للمُخرجة اللبنانية **روان حلاوي**، على خشبة «مسرح المدينة» ببيروت. يندرج العمل ضمن المسرح الاجتماعي الساخر، وهو من تمثيل: **طارق تميم**، و**علي منيمنة**، و**سليم الاعور**، و**ربيع الزهر**، إضافة إلى حلاوي التي كتبت المسرحية أيضاً.

حتى الثلاثين من الشهر الجاري، تستمرّ فعاليات الدورة الرابعة والأربعين من **مهرجان باجة لفنون الشعوب** في موقع دقّة الأثري بالمدينة التونسية. تتضمّن التظاهرة، التي افتتحت أمس الثلاثاء، عروضاً مسرحية وموسيقية لفنّانين وفرق من سبعة بلدان؛ هي: تونس والجزائر وليبيا وموريتانيا وفلسطين والأردن والعراق.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

سعيد محمد الكحلوت كاتب

حارس النوم

منتصف الليل بتوقيت النزوح، أجلس متقرفصاً في ركن الخيمة أحرس نوم أطفالي، تحوم فوق المخيم طائرات استطلاع مُسيرَة، تراقب أحلام النازحين، تعرضها على قادة الغزاة عبر شاشات عملاقة، فإذا لم يعجبهم حلم، أعطوا الأمر لطائرة مقاتلة أن تلقي على خيمة الحالم طناً من البارود، فتهوي الخيمة حفرةً عشرين متراً في الأرض، ويصير هيكلها الهش ناراً تنهش أجساد من اعتقدوا أنهم آمنين في نزوحهم الجديد، فيهرع الناس راكضين يسبقهم صراخهم ما بين طالب للنجدة ومعطيها؛ بينما أتحسس الخُطى في الظلام الشامت، أنتظر اجتياح الشظايا لكي أدفع بها بكفين مجردتين وكثير من الحرص على أرواح وأجساد الصغار النائمين.

يهدأ القصف، تنجو السماء من بطش الطائرات وتلمع فيها النجوم، تستعيد عافيتها، فيما تفشل محاولة خِيام المستشفى الميداني في علاج الحلم، ويعلن عن اسمه في قائمة شهداء الساعة التاسعة صباحاً.

يضرب النازحون كفاً بكفٍ محوقلين مسبحين وساخطين متعوذين من الخذلان ثم يعودون لخيامهم يقاومون النوم، يوصون بعضهم «لا تناموا فرُب نوم جر حلماً ورُب حلم جر كارثة على المخيم»، يهشون على أسراب النوم بالثرثرة ومطاردة أخبار الهدنة على أجهزة راديو يخنقها التشويش فتلهث وتغني وتلهث وتذيع الأخبار فلا يفهم من أخبارها إلا قليلاً. الهدنة بعيدة وكُرة النار تتدحرج تفترس كل ما يعيق طريقها المُنحدر، وتلهث أجهزة الراديو وتتعب بطارياتها وتلهث، وينام النازحون وأعينهم معلقة إلى السماء حيث تجعر فوقهم الطائرات، تفتش عن حلم يحاول أن يتسلل خارج خيمة خائفة تبحث عن ممر آمن لأحلامها.

أواصل أنا حراسة نوم الأطفال، ثمة حركة في زاوية الخيمة الخلفية، أطفئ الضوء، أشعله، أطفئه وأشعله، أمسك بيدي سكيناً مستعداً به لأن أنقضّ على لص يبحث عن زيت زيتون، أسطوانة غاز، مقعد، كيس طحين، زجاجة مياه معدنية، قطعة وأوراق نقدية، سلسلة ذهبية، هواتف محمولة وأي شيء يصلح للسرقة والبيع صباحاً في سوق الحرامية (اللصوص) عند طرف المخيم.

أتنحنح يصوت عال لكي أجنبه وأجنب نفسي قتالاً لا أضمن نتائجه. ولا يهمّ ابن الحرام هذا كيف يجتاح الخيمة، مثلاً قد يهتك عرض شادرها المصاب بالهشاشة، فتجده هكذا في وجهك وسط الخيمة بين الأُسرة يشهر في وجهك سلاحه. وقد يتسلل خِلسة فيحدث شرخاً في زاوية ما من الخيمة، يتحسس ما حول الشرخ ويسحب بيد آثمة ما يقع تحت يديه. وقد يخرج عليك من حلمك فتنهض مذعوراً تتفقد أعضاءك وأطفالك وتقعد تقارع أرتال الأرق حتى صباح تعطلت آلة الزمن بينما تنقله إليك فتأخر ألف عام ولم يأتِ.

يعود القصف من جديد وتحرث طائرات مقاتلة ساحة السماء. يصرخ النازحون من جديد «وين نروح يا ألله، وين نروح يا عالم»، وتعوي في الشوارع صافرات الإسعاف ويجتاح ضوؤها الأحمر المتقطع الخيمة فتصير حمراء. أغطي الأجساد الصغيرة الملتفة حولي، أتفقد سقف الخيمة من أسفل إلى أعلى، أتتبع التفاصيل، من أين يمكن لأفعى مارقة أن تسرق لها مدخل. عليّ أن أراقب أي حركة في زوايا الخيمة، فكل اهتزاز مشكوك فيه متهم حتى تفصح الحركة عن نوايا حسنة كتهريب كمية هواء تكفي لأن أسرق نفساً كاملاً من أنياب طقس ليلي يعج بالرطوبة والحرارة الحارقة.

قبل يومين سمعتُ جارنا المقعد في خيمة قريبة يصرخ بعد منتصف الليل، أغاثه النازحون هرولة، يحمل بعضهم السكاكين وبعضهم العصِي الغليظة وبعضهم بمعاول، وجميعهم أيديهم مشرعة مستعدة للقتال. بعد نصف ساعة من المطاردة والمعارك وصراخ النساء والأطفال، وجعجعة الرجال، خرج أحد الرجال يمسك بيده أفعى بطول مترين وجدها مكان نوم زوجته العجوز التي تكورت في زاوية الخيمة جاحظة العينين صامتة مصدومة، وظلت السيدة المسكينة على حالها صامتة لا تفعل شيئاً وترفض الطعام والشراب حتى لفظت أنفاسها الأخيرة صباح اليوم، وقد دفنها النازحون في أرض زراعية قريبة من سياج المخيم. كتبت ابنتها البكر على ضريحها المؤقت «ماتت قتيلة صمتها»، من يضمن لي أن تكون خلال كتابة هذه السطور ثمة أفعى ترسم خطة ماكرة لتقتحم الخيمة، هل عليّ أن أصرخ وقتها، أو أصرخ الآن على سبيل الاحتياط، فيتجهز الجيران للمعركة.

هل سمعت صراخي عزيزي القارئ الشقيق؟ إنني أصرخ.. نعم أصرخ، عليّ أن أصرخ ليسمعَ العالم الصامتُ صراخي، لا يجب على الفلسطيني أن يموت بصمت دون أن يسمعه أحد، أو يفقد حقه في الصراخ بينما يساق إلى حتفه. فعندما أموت لا أريد أن يُكتب على ضريحي «قتله الصمت».

«سعيد تنساش تجيب معك سم فئران»...

اللعنة نسيتُ ولم أتذكر إلا الآن بعد كل هذا الليل الذي استقر في الخيمة ويرفض الانسحاب. كيف عليّ الآن أن أوقف فضول الفأر الشقي، الذي يستكشف ممرات له تحت وسائد الصغار المختبئين من أصوات القصف، خلف سواتر نوم رملية سرعان ما تنهار كلما دوى انفجار. يحُكني جلد يدي، أشعل ضوء الجوال الباهت، فأجد جعراناً أسود، كأنه جاء إلى هنا بعد حمام زيت، فلمعتْ تفاصيل القبة التي يحملها على ظهره على نحو مقزز، يغرز مخالب أقدامه الشوكية السوداء في جلدي ويسير بهدوء مطمئناً. كيف لي أن أتعامل مع هذا الكائن الغريب الذي يشبه الشيطان في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ كيف يمكنني قتله دون أن أُحدث جَلبة تفشل جهودي الخرافية لحماية نوم الأطفال المتعبين من الحرب وقصص المخيم التي يقصها عليهم الأطفال في النهار؟ لماذا يأتي الليل، لماذا يطيل المكوث هنا؟ ولماذا يعبث بنا كل هذا العدم؟ قصف ولصوص، وسماء متآمرة، وظلام شامت وأفاع وفئران وحشرات تشبه الشياطين، ودماء تتجمد في العروق، وأشلاء تطير وتسقط فوق سطوح الخيام، وأحلام تغتالها القذائف، ونار وطائرات زنانة، وموتى يدفنون تحت شتلات الطماطم وصراخ لا يتوقف. من يشتري ليلنا ويعطينا مساءً مع فنجان قهوة وديوان شعر غزلي وموسيقى قانون هادئة! لا أحد لا أحد. وسنظل وحدنا ننادي في صحراء العرب أحد أحد.

> من يشتري ليلنا ويعطينا مساءً مع فنجان قهوة وديوان شعر غزلي وموسيقى قانون هادئة!

حيدر الغزالي شاعر

زيف المنطقة الآمنة

الجمعة، الرابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، لا أعرفُ كيف تتغيّر معطيات الوقت في الحروب، ولا أعرف كيف تصيرُ كل ثانية نعيشها تحت الصواريخ دهراً كاملاً لا ينتهي، ولا أعرف كيف أصير هرماً كلما صرختْ أختي الصغيرة بملء خوفها حين يباغتنا انفجار قريب.

لا أعرف كيف مضى هذا الأسبوع.

لو أننا لا نحب الليل، لا نحبُ نجومه وسهره، والعشقَ فيه والأغنيات، لو أننا لم نكن نحبه، لما تجمّعنا مع العائلة في غرفةٍ واحدة، نضحك، نخاف، نقلق، نبكي، وننتظر موتاً صعباً تحت سقفٍ يضمّنا، ونحلم بأن نموت معاً.

حين تبدأ الأحزمة النارية في دكّ قلوبنا، يتوقف الوقت برهة، نكتم أنفاسَنا، ونفتش عن ذرات الهواء المخنوقة؛ لنشهقها، فنزفر بعدها أعمارَنا.

أريدُ للطفلة ألا تعرف سوى أحزمة الورد التي تطوّق الجميلات، وتعرف أن النار بدعة.

أريدُ للطفل الذي غرق في صدر أمه، ألّا تفزعه الصواريخ؛ ليصيرَ عاشقاً يجيد العناق.

وأريد أن أتوقف عن تخيّل عظامنا حين تباغتها الصواريخ التي نسفت أحياءً كاملة.

وأريدُ للفلسطيني أن يعيش، فليس ثمة موت يغيظ العدى، كل روح منا متراسٌ في حرب الوجود، والخسارات كبيرة. طوال هذه المدة، كنتُ أحاول مع الصغار، فقرأت لابنة عمي قصصاً أهدتني إياها مايا أبو الحيّات حين التقيتها في رام الله، لم أكن أعرف أنّ قصصها ستكون حياةً أخرى تحت الموت.

ليلة صعبة أخرى تمرّ، أستيقظ باكراً، أفتش عني، أتحسّس أعضائي كلها، ما زلتُ حياً، أو ربما ظاهراً قد بدا ذلك، أسمع جلبة في الخارج، وأسمع صوت أمي تسأل: ملناش حد في الجنوب، وين نروح؟

_إيش في؟

_اسمع

استطاع جيش الاحتلال ضرب الجبهة الداخلية المعدومة في الأصل واستغلال خوفنا وتوقنا للأمان، حين اخترق أثير الإذاعات المحلية في غزة، وبدأ يبث من خلالها أوامر غريبة للنزوح إلى «المنطقة الآمنة» جنوبيّ وادي قطاع غزة. أطلُّ على حارتنا، فأجد أهل الحارة يدورون في دوائر الحديث والحيرة، «وين نروح؟» لو أنّني لا أعرف تاريخ اليوم، لقلتُ إنها النكبة، هي ذاتها في تفاصيلها، لكن كيف للقاتل أن يحدد مناطق آمنة؟

يقع بيتنا على مقربة من شارع صلاح الدين، الشارع الذي يربط شمال القطاع بجنوبه، حيث كان يخرج النازحون نحو الجنوب، نحوَ وُجهات لا يعرفونها، وتيه لا يعرفون نهايته. الأعداد الكبيرة من النازحين كانت تشعرنا بخطورة الأمر، كما لو أننا سنبقى وحدنا في المدينة، فزاد القلق والتوتر. «نضل؟ لأ نطلع، وين نروح؟ المهم ما نخسر حدا، إذا طلعنا مش هنرجع، هيودونا على سينا، المهم ما نشرب حسرة حد، يومين وبنرجع».

كل تلك الحوارات كانت تدور في صالة البيت، الأمهات يبكين، والأطفال أيضاً، والكل غارق في حيرته. وأنا، كنت أكثرهم حيرة، ويقتلني سؤال النكبة والهجرة، تقتلني السردية الفلسطينية التي تكرر نفسها بعد أكثر من خمسة وسبعين عاماً من النكبة، ذات العدو، وذات النزوح، حتى جملة «يومين وبنرجع» التي قالتها أمي لأبي في محاولة منها لإقناعه، كانت كفيلة بأن تذكّرني بآمال الأجداد التي لم تتحقق.

لا شيء يحصل صدفةً تقول أمي، فحين اتصلتْ إحدى قريباتنا تدعونا إلى بيتها في النصيرات، كان حتماً علينا أن نوافق، فقد صار لنا وجهة هناك، وجهة في تيه لا آخر له. «جهزوا الشنطات»، يقول أبي.

كم كان الفلسطيني وحيداً أمام فكرة البيت وهو يحاول تلخيصَها في حقيبة، ونحن الذين من فرط سذاجتنا كنّا نشعر بحرارة الأرقام الزوجية وألفتها، لم نكن نستحق كل هذه الوحدة. ماذا سأضع في حقيبتي، وماذا سأحملُ من ذكريات، لم يكن لدينا وقتٌ لنجمع ضحكنا، روائحنا، فالشمس على وشك المغيب، والليل يكشّر عن ناره.

أخرجتُ سريعاً حقيبتين، حقيبةً لبعض الملابس، وحقيبةً أخرى للكتب والإهداءات، وبعض التذكارات، كل مرةٍ نحملُ أكثرَ الأشياء أهميةً، هكذا كنا نعتقد، وننسى أرواحنا في البيت. جهزتهما سريعاً، واختليتُ بالبيت؛ لأودعه.

بيوتنا أوطانٌ صغيرة، فيها مشينا خطونا الأول، وتهجينا مفردات البلاد، كانت كلها بلاد، تحوي ضعفنا وبكاءنا، أسرارنا وأحلامنا. مشيتُ إلى غرفتي، مددت نفسي لآخر مرة على سريري، غرقتُ في وسادتي، أنا لا يزورني النوم إلا على سريري، فكيف سأنام على غيره؟ سريعاً تجهزت، كانت كل العائلة تجهز نفسها للتيه، أبي يحاول الاتصال بأي سيارة دون جدوى، أعداد النازحين كبيرة حد أننا لم نجد سيارةً واحدة؛ لتحملنا هناك. وبعد أن نجحنا في توفير سيارة نقل تابعة للبلدية يقودها أحد الأقارب، نجحنا في تأمين نصف العائلة. وبقينا نحن النصف الآخر ننتظر.

الشمس على وشك السقوط، ونحن لم نجدْ أي سيارة تحملنا إلى هناك بعد، وبعد انقطاع الأمل، فجأة يطلُّ علينا أحد أصدقاء العائلة في سيارة إسعاف، يعرض علينا الركوب معه. كانت سيارة الإسعاف صغيرة جداً لأن تتسعَ لنا نحن الثمانية، بالإضافة إلى أربعة من عائلة أخرى. حالة تشبه دخول علبة سردين.

كنت صامتاً، أحاول فهمَ ما يجري، كيف غادرت البيت بهذه السهولة؟ كيف تركت أحلامي الخضراء تحت وسادتي ورحلت؟ لو أنني أعرفُ أن آخر مرةٍ نمت فيها على سريري ستكون الأخيرة، لما نمت، لبقيتُ أتأمل تفاصيل البيت، وذكرياتي، لو أنني أعرف أن آخر مرة نمت فيها على سريري سأستيقظ بعدها على جنون الحرب، لما نمت، لكنني كنت أتجهز لمحاضرة جامعية مهمة عند الثامنة صباحاً.

في طريق صلاح الدين، كنت أرصدُ النازحين، والدمار الهائل الذي خلفته طائرات الاحتلال، وسمعنا صدفة أن الاحتلال استهدف سيارات النازحين على طريق صلاح الدين، فلم نصدق، ربما كنا نريد أن نكذب نفسنا، لنصدق كذبة «الأمان» حتى وصلنا إلى طريق وادي غزة.

وأنتَ تنعس في السيارة على حافة النافذة، يلاطفك الهواء وتذوب في حضرة المشهد، وأنت تنتقل بين مشاهد الشوارع والأشجار والبنايات الملوّنة، تذكّر أنني شاهدت من نافذة سيارة الإسعاف أجساداً محروقة في السيارات، منتوفة أجسادها، مشتعلين في سياراتهم كما لو أنّ أحلامهم مادة قابلة للاشتعال، وهم يطاردون النجاة، يطاردون وهم الأمانِ الذي شكّله الاحتلال.

كانت تقولُ أمي: «فش إشي بصير صدفة»، فذهابنا إلى «المنطقة الآمنة» بسيارة إسعاف، والأجساد الممزقة التي شاهدناها تحترق في طريق صلاح الدين، ونحن ذاهبون إلى «منطقة آمنة» حددها احتلالٌ يشرب نخبَ دمائنا منذ خمسة وسبعين عاماً، لم تكن صدفةً أيضاً. ثلاث مرات نجوتُ فيها من الموتِ، مرتين وأنا في السوق، ومرةً حين استهدف الاحتلال مخبزاً هناك، حينها كنا نسمع صوت العاملين في المخبز وهم عالقون في النار، لا أحد يستطيع الوصول إليهم، وهم يصرخون: يا عفو الله، الحقونا الحقونا. غابَ صوتُهم، ولم ينقذهم أحد.

عدنا إلى البيت بعد عشرة أيام، قبل أن يفصل الاحتلال شمال القطاع عن جنوبه؛ لأعيش بعدها أسوأ ما يمكن أن يعيشه إنسان، من مجاعةٍ، واقتحامات برية مستمرة. خلال ذلك شاهدت كيف تدمر المدينة وكيف يستهدف تاريخها. تكبرُ المدنُ على مهلٍ عصفورٍ يتعلمُ الطيران، تحمل تاريخها فوق جناح، وحاضرها فوق آخر؛ لتطير بعدها في المستحيلات. تكبرُ المدنُ على مهل صخرةٍ تحفظُ عطر البلاد، وأهلها، تحاول حفظها، فيتشقق الصخرُ زرعاً. تلكَ مدنٌ فتيةٌ، أعمارُها الدهرُ كلّه، تركض نحو ذواتها ركضةَ غزال لا يتوقف، يجمع هواء البرية كلها، ويزفرُ أخيراً ما يريد.

كنتُ محظوظاً جداً بوجود بيت جدي في البلدة القديمة في غزة، ما جعلني قريباً جداً على أهم العناصر الأثرية والتاريخية هناك، فنشأت بين المسجد العمري الكبير، وقصر الباشا، وسوق الذهب، والأسبطة والبيوت القديمة، حالةٌ تشبه أن تبدأ فلسطينيتك من أوّل التاريخ والنشأة، وحظ صار الآن سكيناً يحفرُ فيّ الحنين باسم الذكريات. كان المسجد العمري الكبير رئتنا التي نتنفس من خلالها هواء بلادنا المحتل، نشعرُ تحت أقواسه بريح القدس والأقصى. لدينا جيلٌ كاملٌ لم يزر القدس مرةً في حياته، وكان يراها كل يوم في باحات المسجد العمري وأقواسه وحجارته القديمة.

كنت محظوظاً يوم زرتُ القدسَ في أيلول/ سبتمبر 2023، قبل الحرب بأيام، مشيتُ وحيداً في أزقتها ووصلتُ إلى قبّتها المذهبة، كان لا شيء يضاهي جمالها، وما هوّن عليّ قليلاً مغادرتها وجود مسجدٍ كالعمري في غزة، لكن الحسرةَ كانت كبيرة حين هدم الاحتلال أجزاءً كبيرةً من المسجد.

فمن أين بدأت الحكاية؟

تبدأ الحكاية في الخامس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 2023. كانت الساعة الآن الحادية عشر ليلاً، الكلّ نائم، أو ربما الكل يدّعي ذلك، كلٌّ خلدَ إلى رأسه بعد جولةٍ جديدةٍ من الصراخ، الكل يخلد إلى نومه هنا حين يفقد قدرته على الخوف. أصوات الانفجارات لا تتوقف، ولا أقوى على استيعاب أن مع كلّ انفجارٍ يسقطُ بيتٌ على أهله، وتموتُ فكرةٌ كانت ستغير العالم، وننجو.

كم مليء هو الإنسانُ بالأفكارِ والمشاعر والحنين! لا تسألني عن الرقم الذي تبدأ عنده المجزرة، كلُّ نفسٍ تموتُ منا مجزرة. أصوات القذائف تعلو وتقترب، أنظر إلى السقف، أتخيله وهو يسقط على صدري، يخنقني. أعاتبكَ يا الله، لماذا خلقتَ الغزيَّ بأقدار الموت هذه، ولم تعطه قدرةً ليجمعَ الهواءَ وينجو بكلّ ما فيه؟ لماذا قدّرت لي أن أقف على الجبل قبل نصفِ شهرٍ من الآن لأول مرة، وتغمرني بهواء رام الله القادم من أمواج الغرب؟ لماذا تتركني بعدها لقدر الاختناق؟

كانت أمي تسمع الراديو حينها، تنتظر انتهاءَ هذا الجنون، أذكر أنها أغلقته بحنق حين سمعت أحدهم يقول بعربية فظة: نحيّي شعبَنا الصامد. كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، الكل غارقٌ في احتمالات موتٍ صعب، حين رنّ هاتفٌ فجأة.

رقم خاص يرنّ على هاتف أمي، والكل يعرف أنّ خلف تلك الأرقام وبالاً ما. هرعت أمي إلى الصالة، التي أنام بها مع أبي وأخوتي وأعمامي، تزجُّ الهاتفَ في حضن أبي:

_رقم خاص

_ رقم خاص؟ يا ساتر.

الكل خرج من غرفه حينها، وأكد فكرة اللانوم. حمل أبي الهاتفَ بتثاقلٍ كبير، وأنا أنظر إلى السقف الذي لم أنتهِ من حديثي معه.

_ألو

_جوز نجوى معي؟

كان سهلاً وقتها أن ترى حدقات أمي تتسع خوفاً: نجوى؟

_صحيح

_أنت بتعرف إنه (جيش الدفاع) صار قريب عليكم، عشان هيك معاكو 24 ساعة تطلعوا من أماكنكم نحو «المنطقة الآمنة» جنوب وادي غزة؛ لإنه حنكسّر منطقتكم تكسير، تصبح على خير.

كأن شيئاً لم يكن، ضجيج العائلة الذي توقف حين أوعز أبي إلى الجميع بالحديث في الأمر صباحاً، لم أكن أسمعه، كان لا يزال صوت المجرم في أذني يحفر فيّ الأسئلة

«حنكسر منطقتكم تكسير، تصبح على خير».

تصبح على خير؟

اتصال الاحتلال يومها، لا يبرر له فعلته أبداً، وذكرها في القصة، لا يبرئ الاحتلال. كيف استطاع أن يجمع «حنكسر منطقتكم تكسير» و«تصبح على خير» في جملة واحدة؟ كيفَ؟ وهو الذي دمر حارتنا، وقتل الأصدقاء. رغم أنّ أعمامي نزحوا إلى الجنوب مرة أخرى، لم ننزح، لن نُعيشَ الكذبة مرتين. نزحتُ إلى بيت جدي في البلدة القديمة، وكان هذا النزوح الثاني.

حين باغت الاحتلال البلدة القديمة، كانت ليلة الاقتحام مليئة بالنار والقذائف، استيقظنا يومها بعد منتصف الليل ولم ننم، لم يكن لديهم أية أهدافٍ سوى التاريخ، لم يكن لديهم أية أهداف سوى وجودنا الأبدي على هذه الأرض. فاضطررنا إلى النزوح إلى منطقة غرب غزة.

حين قالوا إن الاحتلال دمر المسجد العمري، لم أصدق، كأن شيئاً مني قد سقط، شيئاً من الذاكرة والطفولة، من أنا ليغادرني التاريخ دفعةً واحدة هكذا؟ ومهما أعادوا بناءَ الأماكن، فمن يعيد عطر القدامى في الحجارة؟ مررتُ الأسبوع الماضي على البلدة القديمة، والحقيقة أنني كلما مررت، اكتشفت دماراً جديداً، ووجعاً أشد. فحين تتبعتُ خطو الدبابة، عرفتُ أن الجيشَ تمركز في قصر الباشا، ذات المكان الذي باتَ فيه نابليون بونابرت وجنوده بعد هزيمته في عكا.

كان التاريخُ الذي أراد الاحتلال طمسَه يقول لنا شيئاً.

رسم للفنان عماد حجاج

> نحن الذين من فرط سذاجتنا كنا نشعر بحرارة الأرقام الزوجية وألفتها، لم نكن نستحق كل هذه الوحدة